جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

التمزق النفسي ودوره في التجربة الشعرية قراءة في شعر أبى القاسم الشابي

الدكتورة

هدي عثمان حسن

أستاذ مساعد بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة المنيا - جمهورية مصر العربية

العدد الرابع والعشرون

للعام ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

الجزء العاشر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

التمزق النفسي ودوره في التجربة الشعرية قراءة في شعر أبى القاسم الشابي

هدي عثمان حسن

قسم الأدب والنقد - كلية دار العلوم - جامعة المنيا - جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني: Hoda.hassan1@mu.edu.eg

الملخص

تتناول هذه الورقة البحثية موضوع (التمزق النفسي ودوره في التجربة الشعرية- قراءة في شعر أبي القاسم الشابي)، ولعل هذا الموضوع من الموضوعات التي تتعمق داخل ذات الشعراء وتحاول أن تغوص في أعماق النبع الذي تتفجر منه الشرارة الأولى أو الانطلاقة الأولى للنص الشعري؛ لأن ذلك التمزق الذي يعتري النفس ما هو إلا نتيجة لمعطيات كثر تتقارب وتتفاعل حتى تصير إلى انفجارٍ نفسيٍّ شديد تتولد منه تلك التجربة الشعرية التي تأخذ من التجربة الشعورية التي تنتمي إليها مددًا للتعبير عن مكنونها.

والتمزق النفسي يعد أنموذجًا لما يعتمل داخل أي شاعر لديه من الحس المرهف ما له، يساعده أحيانا في إزكاء التجربة الشعرية والشعورية لديه، ويجعل منه شاعرًا مفطورًا منشطرًا داخل الذات نفسها إلى ذلك المعبر عمَّا بداخله، وذلك الإنسان الذي يحيا في مأساة لا يستطيع الخروج منها، والولوج داخل هذه الحياة بعوالمها المتنوعة.

ويعد أبو القاسم الشابي من هؤلاء الشعراء الذي لديهم ثراء نفسي خصب في هذه الناحية بالتحديد (التمزق النفسي)، فقد اشتمل بداخله على روح بها من الإنسانية والوجع الإنساني الخاص ما جعل تجربته الشعرية تجربة فريدة في ذاتها، خاصة ولديه من الأحداث الحياتية والأمور المتعاقبة ما يجعل لمثل هذه التجربة تفردًا لديه.

لذا حاولت من خلال هذه الدراسة الوقوف على التمزق النفسي في شعر الشابي وتأثير ذلك على التجربة الشعرية لديه. وذلك من خلال النقاط الآتية:

التهيئة والدوافع، الغربة الروحية ورمزية الصراع الذاتي، الموت وتمزق النفس، مناجاة الممزق المكلوم وإذعانه، تمزق الوطني المخلص، وصلوات في محراب التمزق.

الكلمات المفتاحية : التمزق النفسي ، أبو القاسم الشابي ، التجربة الشعرية ، التهيئة والدوافع .

psychological disruption and its role in the poetic experience – a reading in the poetry of Abu Al-Qasim Al-Shabbi

Hoda Othman Hassan
Department of Literature and Criticism - Faculty of Dar Al Uloom - Minia University - Arab Republic of Egypt
Email: Hoda.hassan1@mu.edu.eg

Abstract

This study discussed the subject psychological disruption and its role in the poetic experience - a reading in the poetry of Abu Al-Qasim Al-Shabbi, so this topic is one of the topics that go deep inside the same poets and try to plunge into the depths of the source from which the first spark or the first breakthrough of the poetic text explodes ; Because that rupture in the soul is only the result of many data that converge and interact until it becomes a severe psychological explosion that generates that poetic experience that takes from the emotional experience to which it belongs, extensions to express its content.

The psychological rupture is a model for what takes place inside any poet of the delicate sense of what he has, which sometimes helps him in fueling his poetic and emotional experience, and makes him a broken poet that is split inside the self itself to that crossing from what is inside, and that person who lives in a tragedy he cannot get out of, and entry into this life with its diverse worlds.

Abu al-Qasim al-Shabbi is one of those poets who have a psychological richness that is fertile in this aspect specifically (psychological disruption). Such an experience has its uniqueness.

Therefore, I tried, through this study, to find out the psychological rupture in Al-Shabbi's poetry and its effect on his poetic experience .

The following points were performed :

Preparation and motivation, spiritual alienation and symbolism of self-conflict, death and rupture of the soul, solemnity of the grieving torn and his submission, the rupture of the faithful patriot, and prayers in the niche of the torn.

Keywords : Psychological rupture, Abu al-Qasim al-Shabi, the poetic experience, preparation and motives.

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

يعد الشعر تعبيرًا عن ذات بها من الحس المرهف ما يجعل من حدسها تفردًا عن باقي البشر، وبها من الإحساس الخاص ما يجعلها أكثر شعورًا بالألم عن غيرها، بها نفس تتأثر بكل شيء، فرح كان أم ترح، تتمزق بينهما، ويتمزق داخلها ذلك الحس الإنساني الفطري الذي وضعه الله تعالى داخلها، لتعبر عن مكنونات لأناس كثر لا يستطيعون التعبير عنها، بالرغم ما يعانون به من عبء نفسي شديد، وتمزق داخلي قوي ومؤلم في كثير من الأحيان.

والتمزق النفسي يعد أنموذجًا لما يعتمل داخل أي شاعر لديه من الحس المرهف ما له، يساعده أحيانا في إزكاء التجربة الشعرية والشعورية لديه، ويجعل منه شاعرًا مفطورًا منشطرًا داخل الذات نفسها إلى ذلك المعبر عمَّ بداخله، وذلك الإنسان الذي يحيا في مأساة لا يستطيع الخروج منها، والولوج داخل هذه الحياة بعوالمها المتنوعة.

ويعد أبو القاسم الشابي من هؤلاء الشعراء الذي لديهم ثراء نفسي خصب في هذه الناحية بالتحديد (التمزق النفسي)، فقد اشتمل بداخله على روح بها من الإنسانية والوجع الإنساني الخاص ما جعل تجربته الشعرية تجربة فريدة في ذاتها.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقد أقيمت حول نزعة الشابي المأساوية الموجعة كثير من الدراسات التي اهتم فيها ببث نزعة التشاؤم والوقوف على بعض القضايا الخاصة التي تهم الجانب الإنساني بل والمجتمعي كله[١].

التهيئة والدوافع :

لم يكن التمزق النفسي لدى أبي القاسم الشابي محض صدفة، أو نزعة عابرة، أو حتى من ذلك النوع الذي يلازم الشعراء، خاصة إذا كانوا من هؤلاء الأكثر رهافة في أحاسيسهم؛ ولكن لهذا التمزق أسباب متعددة، هيأتها الحياة لتكون الفاعل الرئيس في دفع هذا التمزق للظهور بقوة في معظم شعر أبي القاسم وما أفضت به قريحته،" فمسيرة الشابي ومعاناته ستبقي مرجعاً للذي يروم أن يعانق شوق الحياة وجمال الوجود متحدياً بذلك العوائق والحواجز والمحبطات وكم كانت عديدة أمام الشابي لكنه استطاع أن يجعلها حافزاً يستنهض همته ويقوي عزمه ودافعا يرنو به نحو الأفاق العالية الرحبة! لم يكتب الشابي الشعر فحسب وإنما جال بقلمه في فنون النقد والخاطرة والقصة والمذكرات والرسائل والمحاضرات، وكان مستوعباً لإنجازات الأدب في عصره ومطلعاً علي المدارس الغربية الرائجة وقتذاك ومنخرطا في حركة التطلع والتحرر لشعبه، ومواكبا لإرهاصات العالم

١- يراجع في مثل هذه النزعات والقضايا: أثر النزعة التشاؤمية في المعجم الشعري لأبي القاسم الشابي، رسالة ماجستير، إعداد إياد توفيق مصطفي أبو الرب، ٢٠٠٩م، جامعة النجاح. وكذلك: قضايا الذات في شعر أبي القاسم الشابي للباحثة بسمة يونس غيث، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠١١م. ويراجع كذلك: النزعة الإنسانية في الشعر بين أبي القاسم الشابي وغازي القصيبي رسالة دكتوراه للباحثة هيفاء عطا الله بنت رشيدي الجهني، كلية التربية، جامعة أم القري ١٤٢٧هـ.

الاستعماري ومتوثبا للدفاع عن القيم الانسانية الخالدة والنبيلة، فكان شعره ونثره معاً سجلاً للمبدع إذا يحلم والمبدع إذ يلتزم".[١]

لقد كان لأبي القاسم الشابي ثراء في التكوين، وخصوبة في المنشأ، وغزارة في المعرفة بالرغم من قصر حياته، ولعل السبب الأول في ذلك يرجع إلى نشأته التي تأثر بها تأثرًا شديدًا بأبيه في شتى مناحي الحياة؛ حيث" نشأ أبو القاسم في سني تكوينه الفكري والخلقي في كنف والده يقتبس من علمه وآدابه، حيث كان – رحمه الله– صادق التقى، قوي العقيدة، لا يخشى في الحق لومة لائم، له غيرة على شئون المسلمين والإسلام، تنفعل نفسه بما يجرى آنذاك من أحداث بالشرق العربي، كما كان كثير التنقل والسفر عبر المدن التونسية، وكان يصطحب فيها ولده، فتمكن من الاطلاع على ثقافات هذه المدن وعاداتها وتقاليدها "[٢].

هذه النشأة الخاصة التي تركت بصمات واضحة على حياة الشابي كلها، جعلت من ذلك الشاعر إنساناً يستشعر كل ما حوله من آلام إنسانية متنوعة، ومأساة تتجدد كل يوم أمام عينيه بأنواع متعددة ومتباينة، وشكلت في نفسه الشاعرة رواسب سلبية ظهرت في تلك الكلمات والأبيات التي أمتع بها حسنا في نظمه الشعري.

ومن قراءة الوثائق التاريخية التي أرخت لحياة أبي القاسم الشابي تاريخًا واقعيًا، ومن استنطاق شعره تمكنت الباحثة من استجلاء بعض المميزات والظواهر التي طبعت شعره، ومن هذه المميزات موهبته الشعرية

---

١ – حركات الشعر الجديد بتونس، سوف عبيد، كتاب الحرية، soufAbid.com ص١٢.

٢ – ديوان أغاني الحياة، أبو القاسم الشابي الدار التونسية للنشر ١٩٧٠مقدمة الديوان بقلم أخيه محمد الأمين الشابي ص١٢

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المبكرة، ومن المعروف" أن الشعر ينبوعه الموهبة، وهي كفيلة بالتعبير عما التهب من الأحاسيس وما انضبط منها"[١]، فنحن نرى الشاعر قد عبر بهذه الموهبة عن أحاسيسه وأوجاعه، وظهرت هذه الموهبة في غزارة إنتاجه الشعري إذا ما قورنت بالمدى الزمني القصير الذي عاشه، وجعلت من انشطار ذاته وتمزقها مددًا ومعينًا لا ينضب لهذه التجربة الخاصة لد الشاعر.

ثم إن الشابي كان" يميل إلى الأدب والشعر منذ صغره، فاطلع على آثار كبار الأدباء من العصر الجاهلي، حتى العصر الحديث، كما أنه شغف بما كان يترجم إلى العربية، من الآداب الأجنبية، سواء من الأدب الفرنسي، أو الإنجليزي أو الأمريكي، ثم أعجب كذلك بشعر المهجر، والشعراء الرومانسيين، أمثال جبران خليل جبران، ولامارتين الفرنسي، وإلى جانب هذا كله كان يتابع قراءة عدد كبير من المجلات العربية التي كانت تصدر آنذاك، كـ (الهلال والمقتطف) وغيرها. فتمكن بفضل مطالعاته الخاصة الواسعة من استيعاب ما تنشره المطابع العربية من أدب الغرب وحضارته بالرغم من عدم معرفته للغة الأجنبية " [٢]

وظهرت هذه الموهبة الشعرية أيضا في إحساسه الشعوري الدقيق، ووجدانه العاطفي الغزير، وإحساسه الذي تكون لديه من حبه الكبير للشعر من حيث كونه " فيضًا تلقائيًا للعواطف الجياشة" [٣] إحساسه الشعوري

١ – الرومانتيكية، محمد غنيمي هلال، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٣م ص٥٥
٢ – أبو القاسم الشابي حياته وشعره، زين العابدين السنوسي تونس، دار الكتب الشرقية ١٩٥٦م ص١٣
٣ – مقومات الشعر العربي المعاصر محمود حامد شوكت، رجاء محمد عبيد، القاهرة، دار الفكر العربي ص ٣٣

الدقيق تجاه والده وصدمته في وفاته، ووجدانه العاطفي الغزير تجاه محبوبته التي فقدها بموتها، فنظر إلى واقعه فرآه واقعًا مريضًا، جافًا، مرًا، ورأى الكائن البشري ممزق بين مقتضيات الجسم والروح من هنا طبع شعور التمزق والقلق معظم شعر أبي القاسم الشابي، فقد أصبح مقيمًا داخل نفسية الشاعر.

وظاهرة التمزق من الظواهر المهمة التي تجلت في شعره، في ارتباطها بالتجربة النفسية، وفنها الشعري، وعلاقاتها الوجدانية، وصور تفاعلها بالمضمون ودواعيها، ومثيراتها النفسية التي شكلتها وهو ما يعطي معنى الإبداع الفني، الذى ذهب إليه الدكتور (مصطفى سويف) من " أن القصيدة من حيث هي عملية، أو من حيث هي كل دينامي، تتألف من وثبات لا من أبيات ومن هنا كانت الوثبة هي وحدة القصيدة "[١] ومن ثم فإن لحظات الإبداع عند الشاعر تكون حينما يتحرر من دلالات الأشياء كما هي في الواقع العملي، ليشكلها في دلالات جديدة وفق حركة النفس.

الغربة الروحية ورمزية الصراع الذاتي:

لعل الصراع الداخلي أهم ما يميز التمزق النفسي لدى الشاعر، ورمزية هذا الصراع تتخذ من الغربة الروحية متنفسًا تحاول من خلاله التعبير عمَّا يعتمل داخلها.

إن ظاهرة التمزق النفسي تتجلى في تمام صورها في ديوانه الأوحد (أغاني الحياة) وتلهمه أنساق الصياغة اللغوية في نسيج بنائه الشعري،

---

١ – الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مصطفي سويف، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف ص ٢٩٣

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وفي هذا الديوان تتجلي نفثات متفرقة لهذه الظاهرة، جاءت في شكل قوالب انتقاضية يائسة تنم عن تأملات في منزلة الإنسان، ووضع الكائن البشري الممزق بين مقتضيات الروح والجسم.

وتتضح هذه الظاهرة أول ما تتضح في غربته الروحية التي صرح به في قوله :-

شَرَدت عن وطني السماوي الذي ... ما كان يومًا واجمًا، مغمومًا
شردت عن وطني الجميل ... أنا الشقي، فعشت مشطور الفؤاد يتيمًا
في غربة روحية، ملعونة ... أشواقها تقضي، عطاشًا، هيما
يا غربة الروح المفكر! إنه ... في الناس يحيا سائمًا، مسئوما [1]

وقد حاول الشاعر التخلص من غربته الروحية والصراع الذاتي المتأجج بوجع ذلك الاغتراب ذاته عبر رحلته الخيالية إلى فردوسه الذي كان قد حلم به، عن طريق رؤيته الصوفية، ولكن الوحشة والهموم عاودته، واتخذ من الناي وصمته رمزًا لأشواقه المضطربة في نفسه الممزقة يقول في قصيدته (الأشواق التائهة) :-

يا صميم الحياة إني وحيد ... مذلج، تائه، فأين شروقك ؟
يا صميم الحياة أني فؤاد ... ضائع، ظامئ، فأين رحيقك؟
يا صميم الحياة قد وجم الناي ... وغام الفضاء، فأين بروقك ؟ [2]

---

١ - ديوان أغاني الحياة ص ١٢٠
٢ - ديوان أغاني الحياة ص ١٦٤

تتضح هذه الظاهرة أيضًا في فقدانه للعلاقة بين ذاته ومجتمعه، وإحساسه بالتمزق والغربة وانشطار الذات، بين تلك المتمسكة بماهية حياتها، والأخرى التي يمزقها ذلك الانقسام فتتيه عن الطريق والوجهة الصحيحة، إنه يواجه هذا العالم الخارجي بعد أن ناخت نفسه بالمآسي، ولم يجد قلبًا عطوفًا، يشاركه أحزانه وآلامه فيقول في قصيدته (أغنية الشاعر) :-

ناخت نفسي مآسيها، وما وجدت ... قلبًا عطوفًا يسليها، فعزيني

وهد من خلدي نوح، ترجعه ... بلوى الحياة، وأحزان المساكين

على الحياة أنا أبكي لشوقها ... فمن إذا مت يبكيها ويبكيني

ياربة الشعر غنيني، فقد ضجر ... ت نفسي من الناس أبناء الشياطين [1]

١ - نفسه ص ١٠١

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الموت وتمزق النفس:

للموت سطوة خاصة، ووجع يجتاح جنبات الروح، وفقد يسلب الحياة بهجتها، والوجود طعمه، هذا في رحلة الموت عامة، وأما فقد الأحبة خاصة فله ماله من آلام تظل باقية لا تتقادم بمرور الزمن وغن بدا الظاهر عاديًّا أو الشخص مألوفة أموره.

نرى نفس الشاعر تتمزق أكثر حينما يسائل الوجود والكون في حيرة واكتئاب، فلا يعثر علي رد أو جواب، ولا يري سوى زهور الحياة وهي تتساقط في صمت محزن علي قدميه، فيقول في قصيدته (في ظل وادي الموت) :-

ثم ماذا هذا أنا صرت في الدن ... يا بعيداً عن لهوها وغناها
في ظلام الفناء أدفن أيا ... مي ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوي بصمت ... محزن مضجر على قدميا
جف سحر الحياة يا قلبي البا ... كي فهيا نجرب الموت هيا! (١)

تأملات حزينة صادرة عن نفس ممزقة منشطرة، تحس بالفقد والضياع والسبب في كل هذه التأملات فقده لأبيه، والفقد والموت فرصة تنبه الإنسان إلى وضعه الوجودي، فقد كان الشابي متعلقًا بوالده إلى حد التقديس، رأى فيه مثله الأعلى في العقيدة والسلوك، قال عنه " إنه أفهمني معاني الرحمة والحنان وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم، وأقدس ما في هذا الوجود[٢] فلما افتقده كان موته عليه صدمة صاعقة زعزعت كيانه ونبهته

١ - السابق ص٢٠٥
٢ - السابق ص٢١- السابق، ص١٤٠، ١٤٣

إلى فاجعة المآل والمصير، هذا بالإضافة إلى التمزق العاطفي الذي حدث له بفقده لمحبوبته وكلاهما تمزق ما ورائي وجودي مداره ذو تركيب ثنائي مزدوج، طرفاه الموت والآلهة.

فحينما استلهم الشاعر إيحاء المأساة ووجدت شاعريته تصدر عن معنى الموت مرارة وأسى وتشكيا، فيستحيل الموت مولدًا لمعاني المأساة الوجودية، ويصبح نواة تحيط بها عناصر الانفجار السلبي في المرض والحاجة والتنكر، فهو إذن مصب لكل التيارات الخارجية المسلطة على المشاعر ضغوطًا واعية أو مكبوتة قهرية.

ويصل الشاعر في تصويره هذا الجانب من التمزق إلى تشكيل صورة الانشطار في قصيدته " يا موت " حيث تقوم المناجاة علي سلم من القيم المتدحرجة نحو الذوبان يقول :-

يا مَوْتُ قدْ مزَّقْتَ صَدْري ... وقَصَمْت بالأَرزاءَ ظَهْرِي
ورمَيْتَني مِنْ حالقٍ ... وسَخِرْتَ منِّي أَيَّ سُخْرِ
فلَبِثْتُ مرضوضَ الفؤادِ ... أَجرُّ أجنحتي بذُعْرِ
وفَجعْتَني فيمَنْ أُحِبُّ ... ومنْ إليهِ أَبُثُّ سِرِّي
وَرَزَأْتَني في عُمْدَتي ... ومَشُورَتي في كلِّ أمْرِ
وهَدَمْتَ صرحاً لا أَلوذُ ... بغيرِهِ وهَتَكْتَ سِتْرِي
فَفَقَدْتُ روحاً طاهراً ... شهماً يَجِيشُ بكلِّ خَيْرِ
وَفَقَدْتُ كفًّا في الحَيَاةِ ... يصُدُّ عنِّي كلَّ شرِّ
وَفَقَدْتُ وجهاً لا يُعَبِّسُهُ ... سوى حَزَني وضُرِّي
وَفَقَدْتُ نفساً لا تَني عنْ ... صوْنِ أَفراحي وبِشْرِي

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وَفَقَدْتُ رُكني في الحَيَـــةِ ورآيَتي وعمادَ قصْـــــرِي
يَا مَوْتُ قَدْ مَزَّقْتَ صَدْري وقَصَمْتَ بالأَزراِ ظهْرِي(١)

نفس ممزقة، وذات عانت من الفقد والضياع، بعد فقده لأبيـــه، كـــذلك عاش تجربة عاطفية عميقة باءت بالفشل، بموت الحبيبة وهي في ريعـــان شبابها، فطعن المحب طعنة قوية مزقت وجدانه، وأذابت قلبه حزنًـــا علـــى فراق محبوبته التي بكاها بكاءً مرًا في قصيدته " مأتم الحب "

في الدَّياجي
كم أُنَاجي
مَسَمَع القبر بغصَّات نحيبي وشجوني
ثم أصغي عَلَّني أسمع ترديد أنيني
فأَرَي صوتي فريدْ
فأُنادي
يا فؤادي
ماتَ من تهوى وهذا اللّحد قد ضمَّ الحبيبْ
فابك يا قلبُ بما فيكَ من الحزن المُذيبْ
ابك ياقلب وحيد(٢)

ففي هذه الأبيات تتضح تجربة الشاعر الوجدانية مـــن خـــلال بعـــدين أولهما: البعد الإيجابي وفيه تنفجر شحنات الملكات الشعرية الخلاقة، والبعد الثاني وهو السلبي، وهو يتضح في ذات الشاعر المأساوية، وهذا الازدواج

١- السابق، ص١٤٠، ١٤٣
٢ - نفسه ص٤٥

هو ذاته أساس ظاهرة التمزق عند الشاعر في هذه الأبيات، فالحب طاقة محركة، مؤثرة آثرت العطاء الفني على حساب الكيان الوجودي، لأنه يصدر عن نفس واحد وهو نفس التظلم، وعن اتجاه واحد وهو اتجاه الحرمان.

وعلى هذا التقدير اتضح اللفظ الشعري في دلالته النفسية الذي به قوامه.

فالتجربة الشعرية تقوم على مجموعة من العناصر الأساسية، تدخل في تكوينها وبنائها، ومن أهم هذه العناصر في البناء الشعري الألفاظ إذ هي التي تنقل المعاني المجردة من عالم العزلة والعدم، إلى عالم تتجلى فيه مختلف الإحساسات الغامضة الموجودة، في ذهن الشاعر وتتجسد بواسطتها رؤيته الداخلية، وبالتالي تتشكل وفق حركته النفسية، ونظرته إلى العالم الخارجي، وهذا التشكيل لا يتم إلا عن طريق اللغة، باعتبارها مجموعة من العلاقات.[١]

ويصل التمزق الضارب في الازدواج إلى حد المفارقة الصارخة في قصيدته " أيها الحب " حيث يشكل شبح العاطفة مصدرًا للشقاء تحكم به الإرادة الأزلية على الكائن قضاءً وقدرًا فيقول :-

أيُّها الحبُّ أنْتَ سِرُّ بَلاَئِي وَهُمُومِي، وَرَوْعَتِي، وَعَنَائي
وَنُحُولِي، وَأَدْمُعِي، وَعَذَابي وَسُقَامي، وَلَوْعَتِي، وَشَقَائي[٢]

فهو سر بلائه وهمومه، وعنائه، ودموعه، ومرضه، وشقائه ثم يعود فيجعله سر وجوده، وحياته، وشعاعه الذي به تستقيم حياته فيقول :-

---

١ - في الميزان الجديد، محمد مندور، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ص١٣٥
٢ - ديوان أغاني الحياة ص١٩

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أيها الحب أنت ســـرُّ وُجودي وحياتي، وعِزَّتي، وإبائي

وشُعاعي ما بَيْنَ دَيجورِ دَهري وأَليفي، وقُرّتي، ورَجائي

ثم تتجمع الأضداد في ثنائيات السلب والإيجاب متناظرة علـــى كفتـــي الصدر والعجز فيقول :-

يَا سُلافَ الفُؤَادِ! يا سُـــــمَّ نَفْسي في حَيَاتي يَا شِدَّتي! يَا رَخَائي!

لَيْتَ شِعْري! يَا أَيُّها الحُبُّ، قُلْ لي: مِنْ ظَلاَمٍ خُلِقْتَ، أَمْ مِنْ ضِيَاءِ؟ (١)

فتشتد ضغوط المتناقضات، وإيلام المتفارقات على إحســـاس الشـــاعر وكيانـــــه الوجودي، فتنفجر نفسه في الحب تفجرًا متأزمًا، ينتحي به منحى المأساة القائمة على التمزق، يغذيه الشعور بـــالظلم والحرمـــان، فيصـــور الشاعر مأساة ازدواجه وانشطاره تصويرًا انتحاريًا فيه كثير مـــن مظـــاهر الذات المحطمة، والنفس الممزقة التي تصدعت ثم انصهرت في بوتقة الألم، فروضت عليه حتى بلغت بصاحبها روحًا من التجلد هو إلى الحالات الصوفية أقرب.

١ - نفسه ص١٩، ٢٠

مناجاة الممزق المكلوم وإذعانه:

يتخذ الشابي من المناجاة المباشرة قالبًا يسير به حثيثًا لعل النجاة تكون فيه، وذلك على نمط " رسالة مفتوحة إلى الآلهة " في قصيدته " إلى الله " حيث ينجلي التمزق في الحالة النفسية المضطربة التي تحف بهذا الخطاب وهذا الاضطراب تحركه جدلية مثلثة تنطلق من حالة الإقرار حيث يتجه الشابي إلى الله ملتجأً مستغيثًا مصورًا واقع المسلم المؤمن :-

يا إلهَ الوجودِ! هذي جراحٌ في فؤادي، تشْكو إليْك الدّواهي
هذه زفرةٌ يُصعِّدها الهمُّ إلى مَسْمَعِ الفَضَاءِ السَّاهي
هَذِهِ مُهْجَةُ الشَّقَاءِ تُنَاجيكَ فهلْ أنتَ سامعٌ يا إلهي؟(١)

ثم يتحول الإقرار إلى حالة من الشك تشابه حال الاعتراض في أشكال من التساؤلات المبدئية عن وجود الآلهة وغائبات هذا الوجود :-

خبِّروني هلْ للورى من إلهٍ راحمٍ مِثْلُ زَعْمِهِمْ أَوَّاهِ
يَخْلُقُ النَّاسَ باسماً ويواسيهم ويرنو لهم بعطفٍ إلهي
إنَّني لم أجدْهُ في هاتهِ الدُّنيا فهلْ خَلْفَ أُفْقِها من إلهِ

غير أن الخط البياني للحركة سرعان ما ينحدر بما يحول بين النكران والاعتراض فالإلحاد، فتدخل الجدلية في مرحلة الإذعان فإذا بالاعتراض ينتفي عنه التحدي :-

يا إلاهي قد أنطق الهم قلبي بالذي كان فاغتفر يا إلاهي.

---

١ - ديوان أغاني الحياة ص ١٤٥

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والتجاء الشابي إلى الإذعان في رضوخ واع وتسليم إرادي هو فض لأزمة العقل والإيمان على حساب العقل نفسه، ولا شك أن ذلك هو الذي قوى شحنة التمزق الماورائي الذي يبلغ سناه في قصيدة (الصباح الجديد) وهي قصيدة غريبة في ظاهرها لما تفجرت فيها من متناقضات صارخة ويتضح التمزق النفسي أكثر ما يتضح في هذه القصيدة حيث يقبل على المأساة بشيء من الترحاب والشجاعة فيقول :-

من وراءِ الظَّلامْ ... وهديرِ المياهْ
قد دعاني الصَّباحْ ... وَرَبيعُ الحَيَاهْ
يا لهُ مِنْ دُعاءُ ... هزّ قلبي صَداهْ
لَمْ يَعُد لي بَقاء ... فوق هذي البقاعْ
الوداعَ! الوداعَ! ... يا جبالَ الهمومْ
يا ضَبابَ الأسى ! ... يا فِجَاجَ الجحيمْ
قد جرى زَوْرَقِي ... في الخضمِّ العظيمْ...
ونشرتُ القلاعْ... ... فالوَداعَ! الوَداعْ! (١)

ويلاحظ هنا تغيير الشابي في روى وقافية هذه القصيدة، وقد كان الدافع الحقيقي لهذا التطلع الموسيقي الجديد، ليس التخفيف من رتابة القافية الموحدة فحسب وإنما كان الدافع هو جعل الإيقاع الموسيقى في مجمله خاضعًا خضوعًا تامًا ومباشرًا للحالة النفسية للشاعر.

١ - ديوان أغاني الحياة ص ٢٣٦

ونفسر ذلك أيضًا بأنه نوع من التمرد والرفض للإحساس المادي واستبداله بإحساس مناقض له قائم على أن يزدوج الشاعر ليجرد من نفسه ذاتًا غير ذاته.

كذلك يلمس في هذه القصيدة انحدار زمني يجعل حياة الشاعر سقوطًا فيزيائيًا حرًا، فلم يعد في وعيه حاضر ولا ماضٍ ولا آت؛ بل تخلص الشاعر من قيود الزمان وتجرد عن عالم الواقع، فكأن الحدود الزمنية قد اندكت في عالمه الفني وهو يودع هذا العالم الذي انصهرت فيه الحياة والجمال والصلاة والشموع والأبخرة صابرًا متجلدًا.

وحينئذ يطلعنا أبو القاسم الشابي على حياته الجديدة، فبعد التجلد ومقاومة الألم يدخل الشاعر في حيز الوجود الثاني بموجب اختراقه حدود الزمن فنحس نفسًا من الرفض: رفض العالم، إلا أنه رفض لا ينبئ عن القطع الزمني وإنما هو مؤذن بالامتداد الروحي في قرار الشاعر.

وبموجب هذا الانصهار والتهيؤ النفسي التام يصل الشاعر إلى إشراق تام وفي ذلك إيذان بدخوله في عالم جديد هو عالم المطلق.

هكذا يتلخص محور التمزق في موضوع الحب عبر تجربة الحرمان مصورة لمأساة الحب وهو يتجاوز نفسه، وفي موضوع الحيرة الماورائية والقلق الوجودي، انطلاقًا من علة العلل الأولى إلى فاجعة المآل وهكذا تتجلى ظاهرة التمزق في الشعور بازدواج الكيان النفسي مما يؤول إلى انشطار الوعي الشخصي بموجب ضغوط معينة تولد حالة نفسية انعكاسية.

ويتضح هذا الازدواج أيضًا وهذه الثنائية في تمزق وعي الشاعر ما بين قوى الاستعمار القوى الغالية وما بين الشعب المستعمر نفسه.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وحب الوطن عند الشابي حاد جاء يكاد يصل إلى الانصهار والذوبان في الرمز الوطني، فتقوم بين الشاعر ورمزه الوطني علاقات من الحب والإخلاص ثم النضال فالفداء.

تمزق الوطني المخلص:

إن أهم ما يجعل للمرء قيمة ومكانة، قيمته داخل وطنه، ومكانته التي لا يخترمها شيء، وإذا سلب شيئا منها أحس بفقد عزيز، وشعر بتمزق روحي شديد، والم لا يستشعره إلا من ذاق ذلك الفقد، يعبر عن كل هذا بصورة متعددة، والبوح أحد هذا الصور، والنظم لسان الشاعر الناطق، بل لسان الأمة المعبر عمَّا فيها من تمزق ذاتي سببه ذلك السلب وتلك المعاناة.

" ولقد كان الشابي ناقمًا، كما كان متفائلاً، ولو نظرت إلى نقمة أو تشاؤم في شعره فمرجعه إلى أمل فكري في ذهنه، وأمنيات كبار كانت تراود نفسه، وليس هذا جديدًا على أديب مثل الشابي١"

إن الوطنية شعور ذاتي جميل يرضخ الإنسان بموجبه إلى دوافع نفسية ومنازع ذاتية يتألب فيها مع المجموعة البشرية المنتمي إليها تألبًا وجدانيًا انفعاليًا يعبر عن ذلك في قصيدته (تونس الجميلة) فيقول :-

لَسْتُ أبْكي لِعَسْفِ لَيْلٍ طَويلٍ، أَوْ لِربعٍ غَدَا العَفَاءُ مَرَاحَهْ
إنَّما عَبْرَتِي لِخَطْبٍ ثَقِيلٍ، قد عَرانا، ولم نجد من أزاحهُ
كلّما قامَ في البلادِ خطيبٌ، مُوقِظٌ شَعْبَهُ يُرِيدُ صَلاَحَهْ

١- رحلة طائر في دنيا الشعر، أبو القاسم الشابي، دكتور عبد العزيز النعماني، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولي، مايو ١٩٩٧م، ص ٧٢.

ألبسوا روحَهُ قميصَ اضطهـــــادٍ فاتكٍ شـــــائكٍ يردُّ جِماحَهْ

أخمدوا صوته الإلاهي بالعسف أماتوا صـــــداحه ونواحه

وتوخَّوْا طرائقَ العَســـــف والإرْ هَاقِ تَوًّا ، وَمَا تَوَخَّوا سَمَاحَـهْ

هكذا المخلصون في كلِّ صـــوبٍ رَشَقَاتُ الرَّدَى إليهم مُتَاحَـــهْ

غيرَ أنَّا تناوبتنـــــا الرَّزايا واستباحَتْ حَمانا أيَّ استباحَهْ

شِرْعَتي حُبُّكِ العَمِيـــقُ وإنِّي قَدْ تَذَوَّقْتُ مُرَّهُ وَقَرَاحَـــــهْ

لستُ أنصاعُ للوَّاحـــــي ولو مـ ـتُّ وقامتْ على شبابي المناحَهْ

لا أبالي... وإنْ أُريقتْ دِمـائي فَدِمَاءُ العُشَّاق دَوْماً مُبَـــاحَهْ

وبطولِ المَدى تُريكَ الليالـــي صَادِقَ الحبِّ وَالوَلاَ وَسَجـــاحَهْ

إنَّ ذا عَصْرُ ظُلْمَةٍ غَيْرَ أنِّـــي مِنْ وَرَاءِ الظَّلاَمِ شِمْتُ صَبَـاحَهْ

ضَيَّعَ الدَّهْرُ مَجْدَ شَعْبِي وَلَكِنْ سَتَرُدُّ الحَيَاةُ يَوماً وِشَاحَهْ(١)

تمزق نفسي سببته سلسلة من التصادمات بين القوي المدمرة والشعب أي ما بين القيم المتضاربة

ومن أولي هذه التصادمات حصار الواقع الذي تضافر فيه تردد الشعب وتسلط المستعمر على وعي الشاعر، وثانيها حصار الزمن إذ تجمع الماضي والحاضر علي إحساس النفس ليدفعا بها إلى رؤية المستقبل، والثالث حصار الأدب الذي كرس الشعر بكاءً للربوع الدارسة

١ – ديوان أغاني الحياة ص٢٤، ٢٥

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وبين هذه التصادمات المتقابلة يبرز صوت الشعر المتجدد فيسقط الشاعر من نفسه صورة علي المصلح، ومن الشعب صورة علي المستبد، فتأتي القصيدة نقطة تقاطع قوتين متصادمتين، ويتجول اللفظ المصاغ على عمود الشعر جولة تمزقية بين الوعي الفردي والوعي الجماعي، تطابق فيها الأنا وهو ضمير الشاعر مع ضمير الغائب، صوت المصلح، مثلما تطابق الـ (أنتم) – ضمير المخاطبين أبناء الشعب – مع الـ (هم) ضمير الغائبين الحاضرين باستبدادهم ولو سعينا إلى استنطاق التصوير الشعري لباتت لنا القصيدة ذات رسم بياني انطلق من رفض للموروث ثم تنازل بتصوير الحصار حتى بلغ أسفل الحركة في (تناوب الرزايا)

وعندئذ تبدلت الحركة وتصاعد المد فتشكلت صورة الفدا حتى أفضت إلى الأمل والإشراق.

ويعبر الشاعر عن تمزقه النفسي من خلال استقراء واقع شعبه وهو يرزح تحت كابوس الاستعمار، يستنزف دماءه، ويبتز خيراته، ثم بعد هذا وذاك يلجم صوته بالكبت والغلبة القاهرة. وينظر الشاعر إليه في ذاته فيراه شعبًا طوقته قرون الانحطاط فكبلته بقيود من الوهم والضلال هي إلى الانسلاخ والتفسخ أقرب منها إلى المعالم الحضارية المتميزة، وبعد أن يقر الشاعر بالواقع المعطي فيقول في قصيدته (للتاريخ) :-

البؤسُ لابنِ الشَّعبِ يأكلُ قلبَه ... والمجـــدُ والإثراءُ للأغرابِ
والشَّعب مَعصوبُ الجفونِ مُقَسَّمٌ ... كالشّاة بَيْنَ الذّئب والقَصَّابِ(١)
والحقُّ مَقطوعُ اللّسان مُكَبَّـــلٌ ... والظَّلمُ يمرح مُذْهَبَ الجِلبابِ

١ – ديوان أغاني الحياة ص٢٢٣

ثم يعبر عن إيمانه المطلق بطاقات الشعب الإيجابية وذلك عبر إيمانه بالقدرة على تفجير كوامن أفراد الأمة لإخراج طاقاتها الخلاقة من حيز الكبت إلى حيز الانعتاق فيقول في قصيدته (إلى الطاغية) :-

ألاّ إنَّ أحلام البلادِ دفينةٌ تُجَمْجِمُ فِي أعْماقِهَا مَا تُجَمْجِمُ

ولكن سيأتي بعد لأي نشورها وينبثق اليومُ الذي يترنَّمُ (١)

هذا الإيمان تنعكس نتائجه الفنية فإذا بالشابي يحاول أن يستقي منابع إلهامه من إيمانه بشعبه فيبرز شعوره بعبء المسئولية الفردية في صلب المسئولية الجماعية معبرًا عن الأحاسيس الذاتية المنصهرة في الأحاسيس الجماعية، وهكذا تصل قوة العزيمة وصلابة الإرادة وطفرة الإيمان إلى حد تفجير المعجزات المتحدية للقوى الروحانية المتعالية يقول في قصيدته (إرادة الحياة) :-

إذا الشّعبُ يَوْمَاً أرَادَ الْحَيَاةَ فلا بدّ أن يستجيب القدرْ

ولا بُدّ لِلّيْلِ أنْ يَنْجَلِي وَلا بُدّ للقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِر(٢)

ويتبلور التمزق لدي الشابي في إنذاره وتهديده وتحديه للاستعمار، ويكون بذلك نوع من تجسيم الإرادة الشعرية بتفجير اللفظ حتى يتحول إلى فعل واقع، وهكذا تحمل الثورة في طياتها صيحات تبشيرية مشرقة في قصيدته (إلى طغاة العالم)

ألا أيها الظَّالمُ المستبدُ حَبيبُ الظَّلامِ، عَدوُّ الحياهْ

١ - ديوان أغاني الحياة ص ٦٥، ص٧ في المقدمة بعنوان إلى الطاغية

٢ - نفسه ص٢٤٠

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

رُوَيدَكَ! لا يخدعنْك الربيعُ وصحوُ الفَضاءِ، وضوءُ الصباحْ

سيجرفُكَ السيلُ، سيلُ الدماء ويأكلُك العاصـــفُ المشتعِلْ(١)

وهو في هذه الأبيات لا يتحدث عن استعمار وطنه فقط، وإنما يصـــدح بالثورة على كل أصناف الاستعمار في أي وطن كان، وهي ثورة باسم القيم الإنسانية والمبادئ المجردة من عدالة وإنصاف وحرية ترمي إلى التنديد بكل مظاهر التعسف والكبت، وعندئذ يفتح الشابي جبهة صراعية جديـــدة وهـــي مرحلة استنهاض الشعب وإيقاظه، فيضطلع برسالة الأديب الواعي والمفكـــر الملتزم فيقدم روائع فنية هي من الشعر الهادف الصافي، تجلو في مجملهـــا تحسس الشابي سبيل بعث الوعي في نفوس الشعب المتردد بحثا عن " يقظة الحس " وتكون من الشابي محاولة لتحريك السواكن يجرد لها اللفظ الشعري ويصوغه صياغة ملائمة متدرجة من الإغراء والترغيب في الحريـــة إلـــى الاستفزاز أحيانا بالوخز الضمني والصريح في قصيدته (يا ابن أمي) :-

خُلقتَ طَليقاً كَطَيفِ النَّسيمِ وحُرًّا كَنُورِ الضُّحى في سَمَاهْ

تُغَرِّدُ كالطَّيرِ أَيْنَ اندفعـــتَ وتشدو بما شاءَ وَحْيُ الإِلهْ (٢)

إلى الشعب :-

أَيْنَ يا شعبُ قلبُكَ الخافقُ الحسَّاسُ أَيْنَ الطُّموحُ والأَحْلامُ؟

أَيْنَ يا شعبُ رُوحُك الشَّاعرُ الفنَّانُ؟ أَيْنَ الخيالُ والإِلهامُ؟ (٣)

---

١ - ديوان أغاني الحياة ص ٢٦٤، ٢٦٥

٢ - ديوان أغاني الحياة ص١٣٠

٣ - نفسه ص٢٥٠

فلما لم يجد الشاعر صدى لدعوته تمزقت نفسيته وتمزقت بذلك روابطه بشعبه فيدير ثورته الناقمة تجاه الشعب، وإذا بكثير من الأشعار الصارخة يتحول فيها لهيب الشابي ضد شعبه فيوجه إليه سهام لفظه الشعري المتفجر ولا سيما في قصيدته (النبي المجهول) حيث يقول :-

أيْها الشعبُ! ليتني كنتُ حطَّاباً ... فأهوي على الجذوعِ بفأسي!
ليتَني كنتُ كالسيّولِ، إذا ما سالَتْ ... تهدُّ القبورَ: رمْساً برمسِ!
ليتَني كنتُ كالريّاح، فأطوي ... كل ما يخنق الزهور بنحسي !
ليتني كنتُ كالشّتاء، أُغَشِّي ... كل ما أَذْبَلَ الخريفُ بقرسي!
ليتَ لي قوَّةَ العواصفِ، يا شعبي ... فأُلقي إليكَ ثَوْرةَ نفسي!
ليت لي قوةَ الأعاصيرِ..! لكن ... أنتَ حيٌّ، يقضي الحياة برمسِ..!
إنني ذاهبٌ إلى الغابِ، ياشَعْبي ... لأقضي الحياةَ ، وحدي، ببأسي
إنني ذاهبٌ إلى الغابِ، علَّي ... في صميم الغابات أدفنُ بؤسي
ثُمَّ أنْسَاكَ ما استطعتُ، فما أنت ... بأهْلِ لخمرتي ولكَأسي(١)

والقصيدة تمثل انفجارًا هو نتيجة ضغوط تسلطت علي وعي الشاعر الفردي، والكبت كثيرًا ما يؤدي إلى التمزق والانفجار فيكون ذلك بمثابة رد فعل يبعث القوة الانفعالية إلى الإبراز، فعاطفة الشاعر نحو شعبه كانت عاطفة حب بلغت حد الانصهار، فإذا بها تستحيل ثورة عنيفة إلى حد النغمة، فموقف الشابي يفسر نفسيًا هروب الشاعر إلى الغاب إنما كان تعويضًا عما أصابه بعد أن تسلطت عليه قوة ضاغطة أنتجت اختمارًا طغى على الوعي فأدى إلى رد فعل عنيف، وحمله على إرادة القضاء على كل ما يمكن أن يعرقل ثورته وإن كان منه أو إليه.

---

١ - ديوان أغاني الحياة ص١٤٩، ١٥٠

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

صلوات في محراب التمزق:

لعل وقفة عرضية أفقية من نتاج الشاعر تتيح لنا فرصة جيدة للتعرف على مدى تعمق الأسى والتمزق وتجذره في ذاته المفجوعة، ونفسه المكسورة، وحلمه الممزق، يتضح ذلك التمزق جليًّا في قصيدته (صلوات في هيكل الحب) من خلال تنوع دلالات مقاطعها.

فالمقطع الأول جاء يعتمد على التقرير والإثبات، والمقطع الثاني جاء معتمدًا على التساؤل والاستفهام، والمقطع الثالث جاء معتمدًا على كل من الإثبات والتساؤل في حلقة بين الشك في (التساؤل)، واليقين في (الإثبات) مما يعكس صورة من التمزق والتذبذب، واتحد فيها اللفظ اللغوي بالمدلول النفسي مما أدى إلى تناسق كل من البنية والحركة داخل صياغتها، وهي ظاهرة قليلاً ما تظهر في العمل الشعري.

تنطلق القصيدة من حيث الحركة بلوحة مدارها التقرير والإثبات، والإثبات قالب لغوي يكشف عن حال نفسية هي حال التقرير والجزم، وصيغت هذه اللوحة الإثباتية على مشهدين متوزعين هما المكونان الأساسيان لبنية هذا المقطع الاستهلالي، وقد تفرد أولهما ببيتين هما :-

عذْبةٌ أنتِ كالطّفولةِ ، كالأحـلامِ كاللّحنِ، كالصباحِ الجديدِ
كالسَّماء الضَّحُوكِ كالليلةِ القمراءِ كالورد، كابتسام الوليدِ[1]

حيث جاء هذا المقطع على هيئة خطاب يجري مجرى المناجاة، فكان خطابًا وجدانيًا ذا مهجة غنائية يتوجه فيه الخطاب إلى ضمير المخاطبة

١ - ديوان أغاني الحياة ص١٨٣

(أنت)، الذي قام بدور الرمز ليعقد الصلة بين اللفظ والوجدان، فتبوأ منزلة المصداح الموحي بمتنفس الشعور.

فأصبح ضمير المخاطبة (أنت) هنا مفتاح الإلهام الشعري، وركيزة بنائه، ومقود حركته في نفس الوقت.

فلم تصبح اللغة وسيلة لترجمة المشاعر والأفكار فحسب (وإنما هي وجود وحضور له كيان وجسم، ينبغي أن تتلاحم الكلمة الشعرية مع طبيعة الموضوع، لتصل إلى الاستيعاب والتكامل، وهذا هو أساس الإبداع الشعري الذي يشكل التجربة الشعرية) [١] والشاعر حينما يستخدم الألفاظ، إنما يقوم في الحقيقة بـ " تمثيل تصور ذهني معين له دلالته وقيمته الشعورية"[٢]

ويتبلور لفظ (أنت) ضمير المخاطبة هنا بتحولات دلالية، يتوزع بموجبها على حقول معنوية، منها الحب، ومنها الحبيب، ومنها الإله المقدس يقول :-

أيُّ شيء تُراكِ؟ هل أنتِ "فينيسُ" تهادتْ بين الورى من جديدِ
أم ملاكُ الفردوس جاء إلى الأر ض ليُحْيي روحَ السلام العهيدِ!
أنتِ.. ما أنتِ؟ أنت رسمٌ جميلٌ عبقريٌ من فنِّ هذا الوجودِ
فيكِ ما فيه من غموضٍ وعمقٍ وجمالٍ مُقَدَّسٍ معبودِ
أنتِ.. ما أنتِ؟ أنتِ فجرٌ من السحـ ـر تجلّى لقلبيَ المعمودِ

١ – الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية، عز الدين إسماعيل الطبعة الثالثة بيروت دار الفكر العربي ١٩٧٨م ص١٨٠

٢ – التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٣ص٧٠

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فـأراه الحيـاةَ في مونِـق الحسن ... وجـلّى لـه خفـايـا الخلودِ
أنتِ روح الـربيع، تختـال فـي الدنـ ... ـيـا فتهـتزُّ رائعـاتُ الـورودِ
أنـتِ تُحيِينَ في فـؤاديَ ما قـد ... مـات في أمسيَ السعيدِ الفقيـدِ
أنـت أنشـودة الأناشـيد غنّـاكِ ... إلـه الغنـاءِ، رَبُّ القصيـدِ
أنتِ.. أنتِ الحيـاةُ في قدْسها السا ... مي، وفي سحرها الشجيِّ الفريدِ
أنتِ.. أنتِ الحيـاةُ، في رِقّةِ الفـجـ ... ـر وفي رونق الـربيـع الوليدِ
أنـتِ.. أنـتِ الحيـاةُ، كلَّ أوانٍ ... فـي رُواءٍ مـن الشـباب جديـدِ
أنتِ دنيـا من الأناشـيد والأحْلام ... والسـحْر والخيـال المديـدِ
أنتِ فوقْ الخيـال، والشِّعرِ، والفنِّ ... وفـوْقَ النُّهَـي وفـوق الحـدودِ
أنـتِ قُدْسي، ومَعبدي، وصبـاحي ... وربيعـي، ونَشْـوَتي، وخـلودي
يـا ابنـةَ النُّور، إنني أنـا وَحْـدي ... مَـن رأى فيـك رَوْعـةَ المعبـودِ (١)

لوحة مدارها الإثبات، من حيث هو عمق نفسي تجلوه حبكة لغويـة، عقدت بين طرفيها الضمير المولد للرمز الشعوري والإيحاء التعبيري (أنت) الذي أطلق شرارة الصوغ الشعري والذي أطلق صيغة الإثبات.

جاءت هذه اللوحة في صورة سلسلة من الأوصاف المطلقة عبر قالب التشبيه الذي تداخلت فيه الذاكرة الإنسانية بمخزونها مع محصلات الحواس، وهذا ما ساعد الرمز على استيعاب مضامين الدلالة داخل اللفظ المنطوق.

وبالنظر إلى البيتين الأوليين نجد أن لفظة الطفولـة جـاءت مرادفـة للوداعة، ولابتسام الوليد تأخذ بمجامع الحواس، ولكن تستقطبـها حاسـة

١ - ديوان أغاني الحياة ص١٨٣: ١٨٥

اللمس بعد حاسة البصر، وكلمة (الأحلام) فيها صورة من صور الانعتاق من قيود الزمان والمكـــان، ولفظة (اللحن) تـــوحي بنشـــوة الحـــس الســـمعي، و(الصباح الجديد) فيها فيض من الإشراق والضياء، أمـــا فـــي (الســـماء) فيزدوج فيها التعالي مع إبصار (الضحوك) كما يزدوج في (الليلة القمـــراء) الضياء والأنس، وتظهر حاسة الشم في (الورد) وتنغلق دائرة التصوير بمـــا انفتحت به في حركة إرجاعية تربط ما في (ابتسام الوليد) من براءة بما كان في (الطفولة) من وداعة أي تغلق بما فتحت به

وهكذا تمتلئ حركة الإيحاء بطاقة من التضمين الدلالي، تتحـــول بهـــا القدرة التعبيرية في اللغة من قدرة التصريح إلى سعة التقدير، حيث تجمعت حصيلة الحواس الأربع السمع، واللمس، والإبصار، والشم، وسبقتهم حاسة الذوق، لأنها كانت تمثل نقطة البداية في الحركة الشـــعرية منـــذ أول بيـــت (عذبة) فهي الحاسة المناديـــة، والأربع الأخرى مناداة، لأنها مقصد النداء، فكلها جاءت توازن اللفظ الاستهلالي لفظ حاسة الذوق (عذبة).

كذلك قام البيتان على بنية إرجاعية اتحد فيها اللفظ مع مدلوله، كمـــا اتحد فيها التعبير والتصويت، وكذلك اتحد فيها التركيب والتوزيع، فأما الذي يعود على اللفظ المنطوق ومدلوله فهو تحول البنية الإرجاعية إلى ترجيـــع صوتي سيطرت فيه سلسله من الثنائيات المتوازية أهمها الكاف المســـتأنفة التي تخللت كل مصراع مرتين (كالطفولة كالأحلام ــ كـــاللحن كالصـــباح) (كالسماء كالليلة كالورد كابتسام) مما حقق إيقاع متوحد زاده ارتكازًا، توارد (كاف) كلمة الضحوك بين كاف التشبيهين (كالسماء – كالليلة) بالإضافة إلى ذلك، هناك ثنائية أخرى، وهى توارد حرف (الدال) في عجـــز كـــلا البيتـــين (الجديد، الوليد) مما يحقق رجعًا صوتيًا يتكاثف أكثر في (حـــاء الأحـــلام –

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

واللحن – والصباح) ليستقر في النهاية في حاء (الضحوك)، فيتحول النسيج الصوتي في النهاية إلى تنغيم إيقاعي. ومن تضافر التركيب والتوزيع، في الأبيات إعادة ترتيب عناصر القالب النحوي، وتوزيع أجزاء الملفوظ على النسق التركيبي المصاغ، فقد يأتي مرة بالخبر أولًا ثم مرة بالمبتدأ، وقد يبدأ بالمبتدأ ثم يأتي بعدها ببعض المتممات من صيغ الجار والمجرور، مما وفر للقالب اللغوي قدرة على تصوير الحركة بعد إرساء البنية، لأن كل من الخبر والمبتدأ قد رسخا قدم الانطلاق ثم تلاحقت البنى الفرعية المتجانسة، في ضرب من التواتر الإيقاعي.

وفى الأبيات الثلاثة الآتية تمتزج محصلات الحواس، مع إدراكات الوعي، مع الضمير الأخلاقي فيقول فيها :-

يا لها من وَداعةٍ وجمـــــالٍ وشـــــــبابٍ مُنَعَّم أمْلُودِ!
يا لها من طهارةٍ ، تبعثُ التقديـ ـسَ في مهجة الشَّقيِّ العنيدِ!..
يالها رقَّةً تكـــــادُ يَرفُّ الوَرْ دُ منها في الصخْرةِ الجُلْمُودِ!

حيث تحولت وجهة البث الشعري من منظورين: الأول استبدال الطاقة التضمينية في الفعل اللغوي بالطاقة التصريحية، والمنظور الثاني الالتفات من ضمير المخاطب إلى بنية الغائب، وقد تحقق التحويل الأول، لأن الإيحاءات المتراكمة في المشهد الأول خلقت قدرة تجميعية في الدلالة اللغوية أنطقت لسان الشعر بالمضمون الذي تدور حوله كل الأبعاد الرمزية الأولى، ألا وهو " الجمال ".

ومن هنا تتضح أهمية الألفاظ فهي تحتوي على كم من الدلالات والمعاني التي يثيرها الشاعر في خياله، عن طريق ارتباطه أو اتصاله

بالعالم الخارجي، ثم يحاول أن يمثل هذه العمليات الذهنية المجردة في وسائل تعبيرية مختلفة.

ومن التحويل الثاني أي عن طريق الالتفات ما بين بنية المخاطب، وبنية الغائب، حصل على مستوى الصوغ الأدائي، حيث إن للالتفات قيمة إرجاعية ظهرت من الثنائيات في الأبيات الأولى، كما أن للالتفات وقع من التنزيه جاء عبر عملية التجريد وذلك بواسطة ضمير الشأن.

وهكذا ففي النهاية تتطابق نتيجة تحويل البث الشعري من المنظورين مع مضمون دلالة الالتفات مما يعمل على تجميع صفات الكمال في الإنسان الحبيب المشار إليه بضمير الرمز، وبذلك تتطابق (الوداعة، الجمال، الشباب، الرقة، الطهارة) مع الطبع الفطري والفضيلة الخلقية.

ويتحقق الإيقاع الموسيقي في نفس الأبيات عن طريق تكرار النداء التعجبي (يا لها) في مطلع كل بيت، وهذا التكرار يعد معادلًا لتكرار (كاف التشبيه) في المقطع الأول (كالطفولة، كالأحلام، كاللحن، كالصباح، كالسماء، كالليلة، كالورود، كابتسام)، كذلك يتحقق الإيقاع النغمي أو الموسيقي عن طريق حدوث توازن صوتي بين حرف العين وحرف الراء والقاف فقد جاء حرف العين في البيت الأول، ثم جاء في البيت الثاني يوازيه حرف الراء، وحرف القاف مضعفًا وفي البيت الثالث تتكرر الراء أربع مرات فيما يعرف بكثرة الأصوات وتراكبها وكل ذلك يحقق نغمية الوقع الشعري.

ثم يتحول الشابي من صيغة التقرير إلى صيغة الاستفهام فيقول :-

أيُّ شيء تُراكِ؟ هل أنتِ "فينيسُ" تَهادتْ بين الورى مِنْ جديدِ
ليُعيدَ الشَّبابَ والفرحَ المعسولَ للْعـــالم التعيسِ العميدِ!

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أم ملاكُ الفردوس جاء إلى الأر ضِ ليُحيي روحَ السَّلامِ العهيدِ؟(١)

فهنا يطلب الحقيقة الوجودية لهذا الحبيب المخاطب، وقد جاء التساؤل هنا بين الآلهة والملائكة، فـ (فينيس) هي إلاهة الجمال في الميثولوجيا اللاتينية، وملاك الفردوس هو ملاك السلام في عقيدة الكتب السماوية وقد لجأ الشابي هنا إلى الأساطير " فالأساطير" تحمل التجربة الإنسانية الأولى مع الحياة، ومواجهتها للكون والأشياء[٢] وهذان الملكان يتساءلان من أجل تحقيق الكمال المثالي في الحبيب، عن طريق إعادة الشباب إلى الهرم، والقضاء على الشقاء بالسعادة والسرور، كل هذه المضامين تحققت من خلال ترابط أنسجة البناء العروضي ببصمات الإيقاع الموسيقي في توازن محكم من خلال ظاهرة (التدوير) التي جاءت عليها الأبيات الثلاثة مما أدى إلى تحقيق الانسجام الإيقاعي والنغمي بين الأبيات.

كذلك هناك توازن بين الحروف، حرف السين في (فينيس) وتكراره في (المعسول والتعيس، والفردوس، والسلام) ويتوازن معه حرف العين في (لتعيد – والمعسول – والعالم – والتعيس – والعميد) مع ارتباط السين بالعين في (المعسول – والتعيس)

وتتكرر ظاهرة تكرار الحروف في أكثر من بيت فيقول :-

أنتِ.. ، ما أنتِ؟ أنتِ رسمٌ جميلٌ عبقريٌّ من فنِّ هذا الوجودِ
فيكِ ما فيه من غموضٍ وعُمقٍ وجمالٍ مُقَدَّسٍ معبودِ
أنتِ.. ما أنتِ؟ أنتِ فَجْرٌ من السّحرِ تجلّى لقلبيَ المعمودِ

١- ديوان أغاني الحياة ص١٨٣: ١٨٥ .

٢- لأسطورة في الشعر العربي الحديث، أنس داود، القاهرة، دار الجيل للطباعة ص٢٠

فأراه الحياةَ في مونِق الحـــــسن وجلّى له خفايا الخلودِ (١)

فكثر هنا توارد حرف القاف (العبقري – عمق – مقــدس – لقلبـــي – مونق) فجاء مفردًا مرة في البيت الأول، ثم ازدوج في البيت الثاني، ثم جاء مفردًا في البيت الثالث، وازدوج في البيت الرابع مما يحقق الترابط البنـــائي بين الأبيات أيضًا جاء هنا بضمير المخاطبة (أنت) كمنطلق للأبيات يربط به نسيج البث اللغوي ومد الإفضاء النفسي.

ويتضح التمزق والتوتر في هذه الأبيات، حيث يربط ما بـــين الاثبـــات والتقرير(أنت) والاستفهام والتساؤل (ما أنت) فيقول (أنت .. ما أنت) وينوع بين الحروف ويؤلف بينها مثل حرف الجيم في (الجميل والوجود والجمـــال والفجر والتجلي) وحرف الميم في (الغموض – العمق – الجمال – المقدس – المعبود)

وحرف الخاء في (الخلود – والخفايا) وهذا التنويـــع بـــين الحـــروف والأصوات يحدث التناغم.

ويتخذ من ضمير المخاطبة (أنت) رمزًا للخلق الفنـــي مثلمـــا اتخـــذه مفتاحًا للأبيات، كذلك يتخذه صورة للإبداع المطلق.

(أنت رسم جميل عبقري من هذا الوجود – وجمال مقدس معبود) كما يتخذه رمزًا للإلهام والوحي الشعري (أنت فجر من الســـحر تجلـــى لقلبـــي المعمود) وهكذا فنجد أن الشاعر يتردد ما بين اللفظ في ضمير المخاطبـــة، وبين الأصوات في تكرار الحروف مما يجعلهما ركيزة أساسية لأبياته.

---

١ – ديوان أغاني الحياة ص١٨٤

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثم يحدث تمزق بين (الأنا والأنت) في مقطوعته التي يصف فيها الطبيعة فيقول :-

أنتِ روحُ الرَّبيعِ، تختالُ فـي الدنيا فتهتزُّ رائعاتُ الورودِ
وتهبُّ الحياة سكرى من العِطْر، ويدْوي الوجودُ بالتَّغْريدِ
كلما أبْصَرَتْكِ عيناياَ تمشين بخطوٍ موقَّعٍ كالنشيدِ
خَفَقَ القلبُ للحياة، ورفّ الزّهـ رُفي حقل عمريَ المجرودِ
وأنتشتْ روحي الكئيبةُ بالحبِّ وغنتْ كالبلبل الغـرِّيدِ (١)

طاقة من التضمين الدلالي، وملحمة من الغناء الوجداني، اتحدت فيها عناصر مختلفة وهي (الأنا والأنت) وحصل بينهما تطابق وإسقاط، فأما الأنا فيتناظر والطبيعة، وأما الأنت فصورته الربيع، ويحل الضمير المخاطب من الأنا المتكلم حلول الربيع من الطبيعة، فيرسم نموذج للطبيعة والربيع محولًا عناصر ذلك النموذج إلى زوايا متناظرة، الشاعر فيها يدعو الحبيب ويذوب في الطبيعة، والربيع يحيي الطبيعة، ويؤاخي الحبيب، ويتردد النداء ممتدا كالرجع للصدى.

أن يحل الحبيب في روح الشاعر حلول الربيع في جسم الطبيعة.

وتتبدل الحواس داخل هذا المشهد، فيتحرك القلب ويتنبه اللسان، ويختلط الغناء بالحس كما يختلط النظر بالورد، والشم بالعطر، والسمع بالأناشيد.

ومثلما يعتمد الشاعر على اللفظ والصوت أي اللفظ وتكرار الحروف، فلفظة المفتاح هنا هو (أنت) والصوت هو حرف الراء في (الروح – الربيع –

١ – السابق ص١٨٤

الرائعات – الورود – السكري – العطر – التغريد – الإبصار – الإرفاق – الزهر – العمر – المجرور– الغريد) وفي الأبيات التالية يتضح تمزق نفس الشاعر في إتيانه بكثير من المتضادات مثل الحياة أمام الموت، والإشادة أمام التلاشـــي، والإنشاد أمام الإلجام فيقول في تصويره لوقع الحب على نفسه :–

أنتِ تُحيينَ في فؤادي ما قـــــد ... ماتَ في أمسي السعيدِ الفقيدِ
وَتُشِيدينَ في خرائبِ روحـــــي ... ما تلاشى في عهديَ المجـــدودِ
من طموحٍ إلى الجمالِ إلى الفنِّ، ... إلى ذلك الفضاءِ البعيـــــــدِ
وتَبُثِّين رقّةَ الشوق، والأحلامِ ... والشّدوِ، والهوى، في نشيدي
بعد أن عانقتْ كآبةُ أيَّامـــــي ... فؤادي، وألجمتْ تغـريدي (١)

فقد أصبح الحبيب له طاقة مفجرة، تولد العاطفة، فتذكي معجزة إحياء الروح بعد مماتها، مثلما تبث في الشقاء روح السعادة، ونشوة الفن، ورقـــة الشوق، كل هذه الأشياء هي التي تفجر طاقـــة الإلهـــام الشـــعري، فتجعـــل الأخرس الأبكم من شياطين الشعر، ينطق بالشعر.

ويتضح تمزق نفس الشاعر في إتيانه بمتضادات كثيرة متوازية، فنجد في البيت الأول الإحياء (تحيين) أمام الموت (مات) وفي البيت الثاني نجـــد الإشادة (تشيدين) أمام الإلجام، مما يحقق حركة دورية للمعاني تزيـــد مـــن الإيقاع النغمي أيضا يتضح هنا اعتماد الشاعر على اللفظ الملهم المـــوحي، والصوت المحرك، اللفظ في (أنت) والصوت المولد للحركة النغمية، فازدوج (الأمس بالسعيد)، و (الاشادة بالتلاشي)، و (الرقة بالشـــوق)، و (الشـــدو

١ – ديوان أغاني الحياة ص١٨٤

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بالنشيد)، ثم كثرت الهمزات في البيت الأخير (الكآبة، الأيام، الفؤاد، الإلجام) مما يزيد من الإيقاع النغمي.

يمتد هذا التمزق النفسي بامتداد القصيدة، ما بين تمزق الشاعر بين اللفظ المنطوق المحرك للقصيدة، وما بين دلالته النفسية المقصودة، فيقول منصهرًا في رمز العاطفة والوجدان في مقطع الجمال الفني، مبتدئًا بلفظه المحرك فيقول :-

أنت أنشودةُ الأناشيد، عنـاكِ ... إله الغناءِ، ربُّ القصيـدِ
فيكِ شبّ الشَّبابُ، وشَّحهُ السِّحْرُ ... وشدوُ الهوى، وَعِطْرُ الورودِ
وتراءى الجمالُ، يَرْقُصَ رقصاً ... قُدُسيًّا، على أغاني الوجودِ
وتهادتْ في لإُفْقِ روحِـكِ أوْزانُ ... الأغَاني، وَرِقّةُ التّغـريدِ
فَتَمايلتِ في الوجود، كلحـنٍ ... عبقريِّ الخيالِ حلوِ النشيدِ:
خطواتٌ، سكرانةُ بالأناشيد، ... وصوتٌ، كرجْع ناي بعيـدِ
وَقوامٌ، يَكَادُ يَنْطُقُ بالألحـان ... في كلِّ وقفةٍ وقعـودِ
كلُّ شيءٍ موقَعٌ فيكِ، حتّـى ... لَفْتَةُ الجيد، واهتزازُ النهودِ(١)

ولانصهار ذات الشاعر هنا درجات تدركها أعضاء الحس فترى حاسة الإبصار (العين) في هذا الرمز الملهم الموحي جمالًا مطلقًا يتراوح بين حركة الرقص الأخاذة والسكون الساحر، وتسمع حاسة السمع (الأذن) أوزان الغناء ووقائع التغريد، ثم تستنشق حاسة الشم (الأنف) عطر الورود فيغدو الحبيب مجمع الأحاسيس فيتخذ منه المحب معينًا وملهمًا في كل عوالمه الوجدانية.

---

١ - ديوان أغاني الحياة ١٨٤، ١٨٥

ويتضح في الأبيات مدى الارتباط ما بين اللفظ والحس وما ينتج عن ذلك من ترابط المدلول اللغوي بالإفضاء النفسي، وقد نحت الشاعر من شاعريته ما به جعل الوجود فنًا، والفن خلقًا والخلق خالقًا ومعبودًا فتحول الواقع إبداعًا بتحول الكلام شدوًا، والرؤية استلهامًا، والإفصاح أنشودة، والخطو رقصًا قدسيًا.

وتتضح الحبكة الشعرية في ترابط الأبيات مع بعضها مضمونا وصياغة، فمن ناحية المضمون فقد ربط البيت الأول بين مشهد الحب ومشهد الجمال الفني، وربط البيت الثاني بين الجمال الفني والطبيعة، ومن حيث الصياغة فقد تواصلت سيطرة الصوت الذي كان في المقاطع السابقة من خلال حرف الشين في (الإشاحة والتلاشي والشوق والشدو والنشيد) فنجده هنا في (الأنشودة والأناشيد والشباب والشدو والنشيد والأناشيد والشيء وشب ووشح).

هذا بالإضافة إلى صوت (القاف) الذي بدأ به في (يرقص رقصًا) ثم نما بالتدرج حتى انفرد في نهاية الأمر بالإيقاع والإلهام الموسيقي في (القصيد، الأفق، الرقة، القوام، الوقفة، القعود، الموقع)

ولجأ الشاعر إلى خلق الكثير من المزدوجات اللفظية، سواء منها الازدواج المتطابق في المادة اللغوية (أنشودة الأناشيد، غناك إلاه الغناء، شب الشباب، يرقص رقصًا) ومنها الازدواج المتناظر في الدلالة (إلاه الغناء رب القصيد، شدو الهوى، وأغاني الوجود، أوزان الأغاني ورقة التغريد، ولحن حلو النشيد، وصوت كرجع ناي)

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثم ينتقل إلى مشهد (القداسة الإلاهية) ويبدأه أيضًا بنفس اللفظ المحرك (أنت) فيقول:-

أنتِ.. أنتِ الحياةُ، في قدْسها ... السامي، وفي سحرها الشجيِّ الفريدِ
أنتِ.. أنتِ الحياةُ، في رقَّةِ ... الفجر في رونق الرَّبيعِ الوليدِ
أنتِ.. أنتِ الحياةً كلَّ أوانٍ ... في رُواءٍ من الشباب جديدِ
أنتِ.. أنتِ الحياةُ فيكِ ... وفي عيْنَيْكِ آياتُ سحرها المَدُودِ
أنتِ دنيا من الأناشيد والأحْلام ... والسِّحْرِ والخيال المديدِ
أنتِ فوقَ الخيال، والشِّعرِ، والفنِّ ... وفوْقَ النُّهَى وفوقَ الحُدودِ
أنتِ قُدْسي، ومَعبدي، وصباحي، ... وربيعي، ونَشْوَتِي، وَخُلودي(١)

وفي هذا المشهد يتضح تزاوج وصف الطبيعة مع الحب مع الجمال الفني، فيه يسمو الشاعر ويتعالى نحو اللامتناهي وينشد المطلق، وفيه يتحكم اللفظ المنطوق الملهم في مسيرة المدلول النفسي للشعر يبدأ بازدواج اللفظ المحرك في الأبيات الأربعة الأولى (أنت، أنت الحياة) ثم ينفرد في البيتين الأخريين وكأنما بالشاعر أراد أن يحدث انفجارًا للفظ الشعري ويربطه في النهاية بالمدلول النفسي.

فقد ارتفع الشاعر هنا باللفظ المحرك (أنت) إلى منازل القداسة حبكة وتجريدًا وفي كل هذا إرساء لقدم البناء الشعري.

وهكذا فنجد القصيدة قد تدرجت من التقرير والإثبات إلى التساؤل والاستفهام ثم إلى المزج بينهما فتكونت حلقة دائرية على ثلاثة أنساق ثم تحول الشاعر إلى مناجاة الطبيعة والحب والجمال الفني، فجاء الخطاب

١ - ديوان أغاني الحياة ص ١٨٥

مباشرًا يلغي التساؤل والتردد ليستقر على التأكيد الجازم، والتحاور المنصهر.

وفي هذه الحركة نتبين أدوارًا متعاطفة هي ذاتها واردة على أنساق متدرجة : انبسطت الطبيعية فتناسق فيها الحب مع الجمال الفني، وترابطت فيها المشاهد وتحولت مقفزًا تتحفز عليه الصياغة الشعرية فيتهيأ لها اندفاعًا ترتمي بعده في مسبح القول الإنشائي المتدفق.

وفي الأبيات الأربعة الأولى نجد المشهد وكأنه حوض متلقف لحركتين متعاقبتين ومنطويًا على حركة داخلية تجري مجرى الحركتين الكبريين بما أنها تمتثل إلى نفس الاستدراج : تهيؤ فتحفز فارتماء، وقد تجلى ذلك في انشطار المشهدين إلى نسقين استوعبت الأبيات الأربعة الأولى النسق الأول إذ نسجت على ضرب من المعاودة الداخلية :-

أنت .. أنت الحياة، وهو يرتكز على اللفظ الموحى لتوليد القفزة الإنشائية، والذي دعم هذا التحفز والمراودة معاظلة الأبيات إذ جاءت كلها مدورة بالمعنى العروضي، حيث يداخل الصدر من البيت عجزه

وتستوعب الأبيات الثلاثة التالية النسق الثاني وهو التألق صوب الفعل الشعري، تخلص فيه الشاعر من المعاودة (أنت .. أنت الحياة) واستبقي اللفظ الاستهلالي المحرك (أنت) فقط، وجاءت الصورة فيه مصغرة لكل الحركة الدورانية، إذ هو نفسه راضخ إلى التسلق المتدرج :-

جاء بيته الأول متأرجحًا بين التدفق والانسياب، فأما التدفق فجسمته العبارتان (دنيا من الأناشيد) و (الخيال المديد) وأما الانسياب فهو في تعاقب العطف بين (الأناشيد والأحلام والسحر والخيال) ثم جاء البيت الثاني من

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

هذه الحلقه مدًا فجزرًا فمدًا مضاعفًا، ومفتاح الحركة هو ظرف المكان (فوق) فإذا نحن أمام تحفز في (أنت فوق الخيال)

واسترخاء في (الخيال والشعر والفن)

ثم تدفق مزدوج في (فوق النهى وفوق الحدود)

ثم تبلغ الحركة النسقية قمتها في البيت الثالث من الحلقة حيث يختفي التدفق والانسياب، ويصاغ اللفظ الشعري صوغًا في قوالب الدفع القاطع، فلا استرجاع ولا مراوحة، وإنما هو صياغة متوالية إلى حد الإشباع في النغم والإيقاع والإدلاء وبالنظر، إلى البيت الثالث نجد أنه لابد أن نأخذه في بنائه الذاتي وحركته الباطنة، فنجده يتخذ نسق بعينه، يحكي النسق الدوراني كله المسيطر، فتتراءى لنا الصورة المصغرة القصوى للحركة المتعاطفة جملة ؛لأنه في بنائه ذو ملمح سكوني، تراصت فيه ستة ملفوظات على شكل حدود السور المستقر، ولكنه في مضامينه حركة فيها الإفضاء ورجعه، وفيها الصوت وصداه، انطلق من العلياء القدسية فحل في المعبد مكانًا حيث تعانق مادة الوجود ريحانه، وفي الصباح زمانه حيث الإشراق المؤذن بالربيع رمز الطبيعة، ولا يختلط الوجود المادي بنشوة الحلول الروحي حتى يصاهر الكل خلود الذوات، وهكذا يدور البيت على نفسه وكأنه قطب الرحى تتوالد من حوله الدوائر فتنتشر تلو الدوائر، حتى تتجلى لنا حقيقة هذا المشهد كله إذ هو من القصيدة كالقلب النابض من جسم البناء وحركته وشأنه مع ما سبقه شأن بيته الأخير معه الذي يحوي الخلاصة : فالكل يحكي صورة حركة لولبية على مسار اهتزازي، وهو الثمرة الكاملة لنسيج شعري اندكت فيه الحواجز بين قرار البنية وصيرورة الحركة، فغدا الجميع في سعي حثيث إلى بؤرة الفعل الشعري وقد أصابه.

ثم يبدأ الفعل الشعري ودفعه في الانحدار بعد أن وصل إلى ذروته يقول في قصيدته " صلوات في هيكل الحب " :

يا ابنةَ النُّور، إنّني أنا وَحْدي ... من رأى فيكِ رَوْعَةَ المَعْبُودِ
فدَعيني أعيشُ في ظِلّك العذْبِ ... وفي قرْب حُسْنك المشهودِ(١)

حيث ينطلق المسار التراجعي باستدراك على الارتواء القدسي، ويعود إلى عالم المادة لتقمص غرائز الموجودات فيه، وتشع الأنا، فتطفو الذاتية، ويطلب الحلول في وصال الحب جمالًا وجسدًا، وبهذه الخصائص في الإلهام والصوغ يعود الإيقاع الجزئي بعد أن اختفى في المشهد الذي جسد قمة الهرم البياني للقصيدة، وهذا الإيقاع صوتي نغمي سيطرت فيه غنة النون وعضدتها العين لتشاكل رجع الشين السابق فمن (ابنة النور إنني أنا من فدعيني – حسنك) إلى (روعة المعبود فدعيني أعيش) حتى (أعيش والمشهود) ويتواصل التعاظل الإيقاعي في باقي الأبيات فيقول :-

عيشةً للجمال والفنّ والإلهام ... والطُّهْر، والسّنَى، والسّجودِ
عيشةَ النَّاسِكِ البُتولِ يُنَاجي الرّ ... بَّ في نشوَةِ الذُّهول الشديدِ(٢)

وهذان البيتان يقومان مقام الاستدراك على الأبيات السابقة فكلاهما مفتتح بمادة الفعل السابق (أعيش عيشة وعيشة) والكل متعاضد في سياق نحوي وتركيبي واحد، لأن البيتين ينطلقان من المفعول المطلق للفعل السالف، كذلك نجد تجانسًا نغميًا متواصل على شكل (أعيش والمشهود) بواسطة (عيشة وعيشة ونشوة وشديد) وتجدد في تناسق (الإلهام والطهر) ثم (السني والسجود).

---

١ – ديوان أغاني الحياة ص١٨٥
٢ – ديوان أغاني الحياة ص١٨٥

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ونجد في المضمون محاولة للرجوع إلى عالم المطلق والمجردات، فيتحول المدار طاعة العبد المذعن إلى المعبود المتسامي.

ويتراءى الدفق الإيقاعي من خلال التراكم اللفظي المتعاقب في البيت الأول والمنساب في البيت الثاني.

ويؤدي هذا الاستدراك على الانحدار إلى مد ثالث طبقًا لنسيج الحركة الثلاثية التي رأيناها مقودًا لكل القصيدة يقول :-

وامنَحيني السّلامَ والفرحَ الـرّو ... حيَّ يا ضَوْءَ فجْريَ المنشـودِ
وارحَميني، فقدْ تهدَّمتُ في كـو ... نٍ من اليأس والظلام مَشـيدِ
أَنقذِيني من الأَسى، فلقد أَمْسَيتُ ... لا أستطيعُ حملَ وجـودي
في شِعَابِ الزَّمان والموت أمشـي ... تحت عبءِ الحياة جَمَّ القيـودِ
وأماشي الورَى ونفسيَ كالقـبرِ، ... ـرِ، وقلبي كالعالم المهـدودِ
ظُلْمَةٌ ، ما لها ختامٌ، وهـولٌ ... شائعٌ في سكونها الممـدودِ
وإذا ما اسْتخفّني عَبَثُ النَّـاس ... تبسَّمتُ في أسَـى وجُمُودِ
بسمةً مُرَّةً ، كأنِّيَ أسـتلُّ ... من الشَّـوْك ذابلاتِ الورودِ
وانْفخي في مَشَاعِري مَرَحَ الدُّنيا ... وشُـدِّي مِنْ عزميَ المجهـودِ
وابعثي في دمي الحَرارَة، علَّـي ... أتغنَّى مع المنى مِنْ جَـديـدِ
وأبثُّ الوُجودَ أنْغـامَ قلبٍ ... بُلْبُلـيٍّ، مُكَبَّلٍ بالحـديـدِ
فالصباحُ الجميلُ يُنعشُ بالدِّفءْ ... حيـاةَ المحطَّمِ المكـدودِ
أَنقذيني، فقد سئمتُ ظـلامي! ... أَنقذيني، فقد مللتُ ركودي(١)

١ - ديوان أغاني الحياة ص١٨٦

يأتي مشهد الانحدار إلى السفح وقد تحرك على وتر الاستغاثة فتراكمت صيغ الأفعال حتى تكثفت (امنحيني، ارحميني، أنقذيني) فاعلها ضمير المخاطبة ومفعولها ضمير المتكلم، فبدا الأنا رازحًا يثقل بعبء الأحداث، فإذا المفعول به يستنجد بالفاعل، وعلى هذا الشكل تراصت رأسيًا حلقات كفقرات العمود الفقري : (امنحيني – ارحميني – أنقذيني، وانفخي في مشاعري وابعثي في دمي) ثم (أنقذيني أنقذيني) فاستلهام الإنقاذ هو الجوهر المكتنز في صيحة الاستغاثة التي يرجع لها من صداها لهفة مالها قرار، ولئن تراءت من نسيجه صورة التمزق النفسي فإن صياغة اللفظ اللغوي قد تعمدت كشف التلاشي العاطفي إلى حد الضياع في الوجود، فتوافدت مصادر الغيبة، واحتدت مرارتها بشعور الاغتراب الذي يوحي باقتلاع الجذور بين الحواشي، وهو ما صوره البيتان السابع والثامن في تمازج غريب من حدة الوعي ورقة الانسياب، فجاءت الصورة مأساوية، تقابل فيها استعظام المدلول بخفة الدوال، وإذا بالإيقاع يهتز متسللا بين (الناس والتبسم والأسي والبسمة وكأني أستل) تتخلله نتوءات نغمية ودلالية فلا يزداد بها إلا وجعًا وإيلامًا من (العبث والمرارة والشوك والآسى) ومن يتبع خصصية النغم بين تردد الأصوات في موسيقاها يهتدي بالبداهة إلى ترابط الوصال الإيقاعي على مستوى الأجزاء وذلك بضرب من التداعب المتواصل، ف (امنحيني) تنادي (الفرح الروحي)، و (المنشود) يتوسل إلى (المشيد) مثلما يسعي (الأسى) صوب (أمسيت لا أستطيع)، وليس تناغم (على أتغنى مع المني) بأبعد وقعًا من (قلب بلبي مكبل) الذي جاء على صيغته المكدود والركود.

ويتمادى الخط التنازلي في منحدر الإلهام الشعري فيقف وقفة ويستريح بها مستأنفًا انطلاقة جديدة تعتمد على آهة الاستغاثة وياء الندبة مما يصير النداء نقطة ارتكاز الدفع في هذا المقطع فيقول :-

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

آهِ يا زَهرتي الجميلةُ لو تَدْرِين ... ما جَدَّ في فؤادي الوَحِيـــدِ
في فؤادي الغريبِ تُخْلَقُ أكـــوانٌ ... من السحر ذات حسن فريـد
وشموسٌ وضَّاءةٌ ونجـــــومٌ ... تَنْثُرُ النُّورَ في فَضَاءٍ مديـدِ
وربيعٌ كأنّه حُلُمُ الشّـــــاعرِ ... في سَكرة الشّباب الســعيدِ
ورياضٌ لا تعرف الحَلَك الدَّاجي ... ولا ثورةَ الخَريفِ العتيـــدِ
وَطُيورٌ سِحْرِيَّةٌ تتنـــــاغَى ... بأناشيدَ حلوةِ التغـــريدِ
وقصورٌ كأَنَّها الشَّفَقُ المخضُوبُ ... أو طلعةُ الصباحِ الوليـــدِ
وغيومٌ رقيقة تَتَهـــــادَى ... كأَباديدَ من نُثَـــارِ الورودِ
وحياةٌ شعريَّةٌ هي عنـــدي ... صورةٌ من حياةِ أهلِ الخلـودِ
كلُّ هذا يشيدهُ سحرُ عينيـكِ ... وإلهامُ حسْنكِ المعبـــودِ
وحرامٌ عليكِ أن تَهْـــدمي ما ... شَادهُ الحُسْنُ في الفؤاد العميدِ
وحرامٌ عليكِ أن تسْـحَقي آمـ ... ـالَ نفسٍ تصْبو لعيشٍ رغيدِ
منكِ نرجو سَعَادَةً لم نجـدْهَا ... في حياةِ الوَرَى وسحرِ الوجودِ
فالإلهُ العظيمُ لا يَرْحَمُ العَبْدَ ... إذا كانَ في جَلالِ السّجودِ(١)

تطالعنا هنا لوحة الإذعان والخضوع وتبدأ بصوت الاستغاثة وتسلسل تتضح فيه صور الاستسلام المتدحرج تستل فيه الحركة من خبايا البنية، وهذا التدرج الآفل قد صيغ في المضامين الدلالية، وطفا على سطح القوالب اللسانية ثم تسرب من منعطفات البناء التعبيري فنفذ إلى مسام لحمة الوصال النغمية.

١ – ديوان أغاني الحياة ص١٨٦، ١٨٧

ومن ناحية المضمون فإن لوحة الإذعان قد رُسمت بأنفاس أربعة متتالية افتتحتها إفلاتة من التواجد في الطبيعة شكلت غيبوبة رومانسية كالتي تجيء على لسان الهائمين، ثم تابعتها استدراكه عاد فيها الوعي منبها فالتحمت الصورة بموضوع الخطاب، وبعدها انعطف على الإذعان استرحام مستلهم من تدليل المحظورات الوجدانية على المحرمات القدسية، وختمت الأنفاس ببكاء وتحسر في صورة غريبة مربعة الأركان فيها إلاه معبود ومولى عابد وعن كلا الطرفين ينبعث صوب الآخر فعل، فعن المتعبد سجود عظيم، وعن المعبود رجم متعاظم، فتقابل الطرفان وتعاكس الفعلان، فكانا ساحقًا وسحيقًا وتجلت ملامح التشفي كأفظع ما تكون.

ومن ناحية الصياغة فقد كثرت جملة من البنى – غيابية وحضورية – تدافع بها المدلول النفسي على سطح اللفظ اللغوي، منها انقطاع الفعل والحدث، فلو قورن بين توارد صيغ الأفعال في هذا المقطع وبين توارده في المقاطع السابقة لظهرت نسبة الاختلاف معقودة على الرجحان الكامل للمقاطع السابقة وقد استعاضت البنية اللغوية عن غياب الأفعال بكثرة المتعاقبات التركيبية إلى حد من الإشباع، فمن حيث ذكر فعل (تخلق) مبنيًا للمجهول في البيت الثاني تلاحقت نائبات الأفعال على مدى ثمانية أبيات، كل اللاحقات قد استهلت بنائب معطوف : (شموس وربيع ورياض وطيور وقصور وغيوم وحياة) وهذا على بساط البنية النحوية تراكم واستطالة لولا توارد وصال الحبكة الشعرية لأوشك الكلام أن يلج حيز الضباب.

وبنفس النسق التأملي يتوارد ذكر الآلهة في شعر الشابي ذكرًا عرضيًا في غالب الأحيان، فهو بذلك ذكر غير واع يلتجئ إليه الشاعر في صيغ اعتراضية دون أن يتميز فيها الآلهة كحقيقة مقصودة لذاتها، إلا أن الموضوع يستقل بنفسه في بعض الأحيان فيصبغ بصبغة الحقائق المجردة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الخـــاتمـة

عرض هذا البحث التمزق النفسي ودوره الفاعل في التجربة الشـــعرية عند أبي القاسم الشابي، تلك التجربة التي ظهرت مكلومة موجعـــة محملـــة بالأسى في كثير من جوانب انبعاثها وظهورها، ومـــن خـــلال ذلـــك يمكـــن الخلاصة بأهم ما توقفت عنده هذه الدراسة من نقاط وهي:

- إن ظاهرة التمزق النفسي ظاهرة باطنية انعكاسية تصور البعد الســـكوني للشاعر وتستمد نبضها الشعري من إلهام التجلد الذي جاء صوغه إبداعيًا وتصويره ملحميًا.
- وقد بات واضحًا من ذلك العرض السابق، والنمـــاذج الشـــعرية للتمـــزق النفسي لدي الشابي أن المؤثرات النفسية القوية التي تعرض لها في داية حياته كان لها اليد الطولى في كل ذلك التمزق الحادث والمعبر عنه فـــي أشعاره، وبدا واضحًا تلك النفس المكلومة التي تتأثر بأي شـــيء حولهـــا لترده إلى حروف تقطر دمع القلب الموجوع.
- ومن تلك الشواهد الشعرية اتضح لنا ذلك الانشطار الحادث داخل الـــذات الشاعرة، وتنوع المظاهر له، بين تمزق وانشـــطار لحاجـــات ذاتيـــة، او مناجاة خاصة، أو حزين ومتوجع على شعبه ووطنه، إنه الانشطار الذي يجعل من نظم الشاعر وقودًا يلتهب داخل كل نفس لـــديها مـــن الآهـــات والآلام ما يعتمل داخل الشاعر وذاته ولا تستطيع أن تعبر عنه.
- الشابي من هؤلاء الشعراء الذين ما إن نقرأ لاحدهم حتـــى نـــرى تلـــك البصمة الإبداعية واضحة جلية في شعره، وهذه البصمة فيما تم عرضـــه

وغيره الكثير بادية جلية في تجليات التمزق وكيف كان له تأثير مباشر عليه إنسانًا وشاعرًا.

- استغل الشاعر الوزن الشعري والقافية خدمًا لما أراد أن يبثه من لواعج التمزق وآلامه، وجعلهما خدمًا لغرضه الذي أراده، ومن ثم جعل المتلقي في حالة شعورية من الترقب لما تسفر عنه هذه الزفرات من خلجات روح موجوعة.
- اتخذ الشابي من حسن اختياره للكلمات والتراكيب مادة خصبة لتعبر عن تمزقه انشطاره، وعبر عن ذلك جليًّا باستخدام هذه اللغة الطيعة بين يديه لتكون وسيلة للتعبير الجيد عن مراده.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المصادر والمراجع

- أبو القاسم الشابي حياته وشعره، زين العابدين السنوسي، تونس، دار الكتب الشرقية ١٩٥٦م.
- أثر النزعة التشاؤمية في المعجم الشعري لأبي القاسم الشابي، رسالة ماجستير، إعداد إياد توفيق مصطفي أبو الرب، ٢٠٠٩م، جامعة النجاح.
- الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مصطفي سويف، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف.
- الأسطورة في الشعر العربي الحديث، أنس داود، القاهرة، دار الجيل للطباعة.
- التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣م.
- حركات الشعر الجديد بتونس، سوف عبيد، كتاب الحرية، soufAbid.com ص١٢.
- الرومانتيكية، محمد غنيمي هلال، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٣م.
- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية، عز الدين إسماعيل، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الفكر العربي ١٩٧٨م.
- ديوان أغاني الحياة، أبو القاسم الشابي، تونس، الدار التونسية للنشر.
- رحلة طائر في دنيا الشعر، أبو القاسم الشابي، د: عبد العزيز النعماني، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولي، مايو ١٩٩٧م

- في الميزان الجديد، محمد مندور، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
- قضايا الذات في شعر أبي القاسم الشابي للباحثة بسمة يونس غيث، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠١١م.
- مقومات الشعر العربي المعاصر، محمود حامد شوكت، رجاء محمد عبيد، القاهرة، دار الفكر العربي.
- النزعة الإنسانية في الشعر بين أبي القاسم الشابي وغازي القصيبي رسالة دكتوراه للباحثة هيفاء عطا الله بنت رشيدي الجهني، كلية التربية، جامعة أم القري ١٤٢٧هـ.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١.	ملخص	١٠٣٥٧
٢.	Abstract	١٠٣٥٨
٣.	توطئة:	١٠٣٥٩
٤.	التهيئة والدوافع:	١٠٣٦٠
٥.	الغربة الروحية ورمزية الصراع الذاتي:	١٠٣٦٣
٦.	الموت وتمزق النفس:	١٠٣٦٦
٧.	مناجاة الممزق المكلوم وإذعانه:	١٠٣٧١
٨.	تمزق الوطني المخلص:	١٠٣٧٤
٩.	صلوات في محراب التمزق:	١٠٣٨٠
١٠.	الخـــاتمـة	١٠٤٠٠
١١.	المصادر والمراجع	١٠٤٠٢
١٢.	فهرس الموضوعات	١٠٤٠٤